الامبراطورية الفرنسية ، ان تغيرا التركيب القومي والسمات القومية المميزة ، بما في ذلك اللغة ، لعدد من الاقطار العربية وغير العربية ، باستخدام افظع وسائل القهر والضغط والقمع ، فباءت بالفشل كل هذه المحاولات ، وصمدت امام التجربة كل القوميات المضطهدة المكونة تاريخيا .

ولذلك لم يكن مستغربا ان تتطور حركة المقاومة الفلسطينية وتلف حولها جماهير الشعب الفلسطيني .

ويمكن القول بأن هزيمة حزيران كانت البداية الحقيقية للتطور الجديد في الحركة الوطنية الفلسطينية . وقد استفادت هذه الحركة من ظروف الهزيمة ومن الاثر الذي تركته عند الجماهير العربية . فقد كان من نتائج العدوان الاسرائيلي الذي لم يحقق كامل أهدافه في تغيير الخريطة السياسية للبلدان العربية ، لا سيما في اسقاط الانظمة المعادية للاستعمار ، كان من نتائجه ان رقعة العداء للامبريالية والصهيونية ، والرجعية العربية قد اتسعت في صفوف هذه الجماهير وارتبطت القضية الفلسطينية ، أكثر من أي وقت مضى ، بحياة الناس وبمشاكلهم اليومية . وتحولت حركة المقاومة الفلسطينية الى مركز استقطاب أساسي ، بالنسبة للجماهير الفلسطينية المتعطشة الى الخلاص من اوضاع التشرد والقهر والطامحة الى التحرر والعودة الى الارض والوطن المفقودين . واستطاعت المقاومة ان تعوض بذلك ، ولو مؤقتا ، ولو من الناحية النفسية ، عن الاثر السلبي الذي تركته الهزيمة على الجماهير الفلسطينية بخاصة والعربية بعامة . وقد كانت هذه الجماهير ، بكل سلوكها في تلك الفترة ، ترفض الهزيمة وترفض الاعتراف بها . وكانت تنقاد الى مشاعرها العفوية هذه فصائل أساسية في حركة التحرر الوطني العربية . ولم تنج من ذلك حتى بعض الفصائل المتقدمة من هذه الحركة . وتساوت ، في هذه القضية ، من حيث ردة الفعل ، مظاهرات الجماهير الحاشدة في التاسع والعاشر من حزيران التي رفضت استقالة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، بمظاهر الالتفاف الجماهيري الواسع حول حركة المقاومة الفلسطينية المسلحة ، فيما بعد . فاذا كانت الجماهير قد عبرت في الاولى ، برغم عنف الصدمة ، عن خشيتها من أن يذهب ، مع استقالة عبد الناصر ، كل ما تحقق لها من مكاسب على صعيد الوطن العربي كله ، فانها قد عبرت في الثانية ، عن أملها في أن تكون البندقية في يد المقاومة الفلسطينية ، وسيلة لاستعادة ما فقد وللحفاظ على ما بقي .

الا ان كل هذا التطور الذي حصل في وضع الثورة وفي المكان الذي احتلته بالنسبة للجماهير الفلسطينية ، اساسا ، وبالنسبة للجماهير العربية بشكل عام ، لم يقترن بتطور بنفس المستوى في مفاهيمها الفكرية وفي ممارساتها السياسية . وهو ما كانت تتهيأ الظروف ، قبيل حرب تشرين ، لحصوله بشكل قفزة . والحوار الجاري الان بين فصائل الثورة الفلسطينية هو امتداد للحوار الذي بدأ قبل الحرب ، تحت ضغط الضرورات الموضوعية من اجل التغيير سواء بالنسبة لبرنامج الثورة، أم بالنسبة للعلاقة بين فصائلها ، أم بالنسبة لاشكال نضالها ، أم بالنسبة لتحالفاتها .

ولا بد، في مطلق الاحوال ، من الاقرار بأن تغيرا هاما ، مع ذلك ، قد حصل في مجمل سلوك المقاومة ، بعد مجازر أيلول . وقد كانت تجربة ايلول نقطة الانطلاق الاولى في هذا التغيير . ذلك ان الحركة الثورية التي لا تستفيد من تجاربها وتجارب سواها ، هي حركة غير قابلة للنمو والتطور . وأهم العناصر الجديدة التي برزت في اطار التغيير الذي جرى ، اربعة : الموقف من النضال السياسي ، الموقف من التحالفات ، الموقف من أشكال النضال ، الموقف من الوحدة الوطنية .

فقد أصبح النضال السياسي مهمة يومية بعد ان كان تهمة يحاكم عليها ، وجرى تغير